قرينة الرتبة فى التركيب القرآنى

وهى قرينة نحوية ووسيلة أسلوبية: أى أنها فى النحو قرينة على المعنى وفى الأسلوب مؤشر أسلوبى ووسيلة إبداع وتقليب عبارة واستجلاب معنى أدبى. والرتبة النحوية نوعان: محفوظة وغير محفوظة. وقد يقول قائل قد فهمنا أن نسمى المحفوظة منها رتبة، لأنها يتحتم بها أن تأتى إحدى الكلمتين أولا والأخرى ثانيا ولاعكس. فما بالنا بكلمات يمكن لإحداها أن تتقدم حينا وتتأخر حينا آخر ندعى أن بينها رتبة غير محفوظة والجواب أن الرتبة المحفوظة رتبة فى نظام اللغة وفى الاستعمال فى الوقت نفسه أما غير المحفوظة، فهى رتبة فى النظام فقط وقد يحكم الاستعمال بوجوب عكسها، كما فى تقديم المفعول على الفاعل فى نحو «حياك الله» أو بالمحافظة عليها نحو «هذا أخى» وإنما يكون هذا أو ذاك عند خوف اللبس أو اتقاء مخالفة القاعدة أو الأصل أو اختلاف المعنى. ومعنى أن الرتبة قرينة من قرائن المعنى أن موقع الكلمة من الكلمة قد يدل على وظيفتها النحوية. فالفرق بين «قام زيد» و«زيد قام» فرق فى موقع الاسم المرفوع من الفعل وقد ترتب على اختلاف هذا الموقع أن جُعل زيد فى الجملة الأولى فاعلا وفى الثانية مبتدأ على حين لم يتغير أى شىء فيما عدا الرتبة بين العناصر المنطوقة من الجملتين.

والواقع أن كون الرتبة هى القرينة أوضح فى الرتبة المحفوظة منه فى غير المحفوظة سواء أكان حفظ الرتبة بحسب الأصل أم كان لعارض من خوف اللبس أم لرعاية القاعدة، كما رأينا فى الأمثلة السابقة. ذلك بأنك إذا استدللت على الفرق بين الفاعل والمبتدأ الذى خبره جملة ذات ضمير يعود على المبتدأ وكان الفرق هو تقدم المرفوع أو تأخره، فإن هذا الفارق يصبح دليلا على المعنى النحوى.

وإذا قلنا «جاء زيد يركب الحصان الذى يزهو به»، فقد علمنا من رتبة «الذى»

أنها صفة للحصان لالزيد، وأن صلة الموصول هى «يزهو به » وليس «يركب الحصان» أى أننا بعبارة أخرى عرفنا أن الجملة لايمكن فهمها على نحو مانفهم «جاء زيد الذى يركب الحصان يزهو به» لأن الرتبة هنا كانت قرينة على المعنى المراد من حيث إن الصلة لاتتقدم على الموصول أبدا. ومادام نظام اللغة يجعل «لو» فى رتبة التقدم على شرطها وجوابها، فإننا إذا سمعنا حوارا مثل:

ـ ألا تسامح زيدا ولو ندم على خطئه ؟

ـ ولو !

علمنا أن المحذوف هنا يقدر بعد «ولو» ولا يقدر قبلها وأن جوابها إن كان يتصيد مما قبلها، فإن تقديره لايكون إلا بعدها والتقدير: ولو ندم على خطئه ما سامحته. هكذا تكون الرتبة دليلا على المعنى.

عرفنا أن الرتبة إما محفوظة أو غير محفوظة. ومن المحفوظة رتبة بعض الأدوات ذوات الصدارة فى الجملة حتى إن مابعدها لايعمل فيما قبلها (على حد ما يقوله النحاة)، لأنه لو عمل فيه لانمحت فكرة الصدارة، ولأصبح موقعها فى الجملة بعد ما ينبغى أن يكون متأخرا عنها، فإذا قلت «من يعرف هذا؟» فلا يجوز أن تقدم «هذا» وأن تقوم مستفهما «هذا من يعرف» على زعم أن «هذا» مفعول مقدم لأن التركيب عندئذ (بسبب اعتماد معناه على الرتبة) سيفهم منه معنى آخر لايمت إلى المعنى الأول بصلة، ومن هنا تحملت هذه الأدوات التى لها الصدارة فى الجملة بعض عبء «الربط» وبخاصة فى الجمل ذوات الأجوبة ذلك بأن الأداة إذا علم موقعها من الكلام كانت معلما من معالم الطريق فى السياق، وعرف بها أين تبدأ الجملة وعلى أى صورة تقع هذه الجملة؛ هل تتطلب جوابا؟ ومن أى نوع من الأجوبة؟

ومن قبيل الرتبة المحفوظة رتبة الأدوات الداخلة على المفردات كحروف الجر والمعية والاستثناء، والعطف وإنما حفظت رتبتها، لأنها تكشف عن علاقة ما بعدها بالعناصر الأخرى فى الجملة التى هى فيها، فرتبة حروف الجر من مدخولها محفوظة، وإن لم تحفظ رتبة مجموع الجار والمجرور ببقية أجزاء الجملة، ففى قولك: «توكلنا على الله» و«على الله توكلنا» يظل حرف الجر سابقا على لفظ الجلالة سواء تأخر مجموعهما فى الجملة أم تقدم. وهنا تحضرنى مشكلة أود أن أشير إليها

لخطورتها فى فهم المعنى، لم أعلم أن واحدا من النحاة يبيح تقدم جملة الحال على عاملها، ولكنهم أجازوا تقدم الحال المفردة على عاملها المتصرف فقط. غير أن شواهد من القرآن تكاد تجزم بتقدم جملة الحال، كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ** ﴾ (هود ٣٨) وقوله ﴿ **وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَه** ﴾ (هود ٤٢) فإذا كان معنى الحال الملابسة، فإن إحدى طرق التعبير عن الملابسة أن يقال: «بينا يحدث كذا حدث كذا» وهذا التقدير صالح هنا للايتين، إذ (بينا نوح يصنع الفلك سخر منه قومه كلما مر عليه ملأمنهم»، وكذلك (بينا تجرى السفينة بهم فى موج كالجبال نادى نوح ابنه)، أما الواو التى قبل «كلما» والتى قبل «نادى» فموضعهما فى الجملتين المقدرتين قبل «بينا». وقد ورد مثل ذلك فى الشعر أيضا إذ يقول الشاعر:

وأطلس عسال وما كان صاحبا دعوت لنارى موهنا فأتانى

أى (دعوته أو أتانى وما كان صاحبا) ومع ذلك إذا أرتضينا قول النحاه البصريين إن القليل لايعتد به، فلربما جعلنا هذه الشواهد القليلة من قبيل الترخُص فى قرينة الرتبة نظراً لأمن اللبس، وذلك ما سنشرحه فى موضعه من هذه الدراسة إن شاء الله.

أما الرتبة غير المحفوظة، فهى رتبة فى نظام اللغة لافى استعمالها لأنها فى الاستعمال معرضة للقواعد النحوية من حيث عود الضمير، ثم للاختيارات الأسلوبية من حيث التقديم والتأخير. ومن أمثلة الرتبة غير المحفوظة رتبة المفعول من الفعل ورتبته من الفاعل ورتبة المبتدأ والخبر ورتبة الظرف والجار والمجرور مما تعلقا به وأبواب نحوية أخرى. فإذا قضت القاعدة النحوية بحفظ هذه الرتبة اتقاء اللبس أو اتقاء مخالفة القاعدة حفظت هذه الرتبة كما فى «ضرب موسى عيسى» و«أخى صديقى» وكما فى «رأيتك» و«مارأيت إلا إياك»، فإذا لم يقع اللبس كما فى «أكلت الكمثرى سلمى» أو «إن فى بيتى صديقى»، أمكن للمتكلم أن يلجأ إلى التقديم والتأخير، وقد يدعو المعنى أو القاعدة إلى وجوب عكس الرتبة، كما فى قوله

تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة ٥) وقوله جل شأنه ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ (الأنعام ١٥٨) إذ يجب تقدم المفعول به «نفسا» على الفاعل «إيمانها» لأن الفاعل لو تقدم لعاد الضمير الذى فيه على متأخر لفظ ورتبة. . والحق إن الفاعل فى هذه الآية وضع فى موضع لايمكن له معه تقديم أو تأخير مع فصل بين المفعول به وصفته، أما عدم إمكان التقديم فلما مَرّ من عود الضمير على متأخر، وأما التأخير مع الفصل الذى يأتى الفاعل بحسبه بعد انقضاء صفة المفعول به «نفسا» فإنه سيجعل الفاصل بين الفعل «ينفع» وفاعله «إيمانها» من الطول بحيث تضعف العلاقة الإسنادية والسياقية بين الفعل والفاعل. تأمل ما يؤل إليه التركيب عندئذ إذ يكون على الصورة الآتية:

«يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفسا لم تكن امنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا إيمانها» وهكذا يضعف ارتباط الفعل بفاعله، ومن ثم يمكن القول إنه لا يمكن أن يتغير ترتيب الكلام فى هذه الآية على رغم مافيها من الفصل بين الموصوف وصفته ـ وما أحسنه وما أوجبه! ثم انظر إلى حسن عكس الرتبة بإيراد المفعول لأجله أولا ثم المفعول به الموصوف بشبه الجملة ثم الفعل وفاعله فى قوله تعالى: ﴿ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ (الصافات ٨٦) فالآية كما تعلم استفهام إنكارى ومادام معناها الإنكَار فإن ترتيب الفاظها ينبغى أن يكون بحسب الأولوية فى استحقاق الإنكار. وأولى الألفاظ بالأنكار لفظ «إفكا» لأن الكفر قد يكون ميراثا عن الآباء ولكنه قد يكون انحرافا عن الحق متعمدا لا ينفع معه الدليل على فساده فذلك هو الإفك ثم يلى فى الإنكار أن ينصب الإفك على إشراك آلهة مع الله فإذا كانت الآلهة دون الله لا معه فهذا أو غل فى الشرك ويضاعف من سوء ذلك كله أن يكون ذلك بإرادتهم واختيارهم، ولو أن سياق الكلام كان على صورة أخرى مثل: «أتريدون آلهة دون الله إفكا» لانطفأ كل ما فى الكلام من حرارة الإنكار ولبدا الكلام وكأنه سؤال لهم عما يفضلونه من أنواع الشرك.

وفى الكلام رتب أخرى غير الرتبة النحوية أستميح القارىء عذرا أن أشير إليها

بعض الإشارة وأكثر ذلك من قبيل الرتبة الزمانية إذ يحكم العقل لأحد الأمرين بالتقدم ثم لا يتوقف المعنى على تقديمه فى الكلام وإنما يؤمن اللبس على رغم انعكاس رتبة الأشياء. من ذلك مثلا قوله تعالى: ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ** ﴾ (الأنبياء ٩٠) فالمعروف من سياق الآيات أن امرأة زكريا كانت عقيما وأن حملها بغلام لا يتم إلا بعد صلاح حالها وإزالة عقمها بإرادة الله فالمعقول أن يتم إصلاحها أو لا ثم يترتب على ذلك أن يأتى الغلام هبة من الله لوالده ولما كان هذا المعنى لايغيرَه أو يخفيه عكس ترتيب ذكر الأحداث جاءت الآية وهى تقدم ذكر الهبة لأنها هى المظهر الأوضح للاستجابة. وليس يساوى ذلك فى الحسن أن يقال: «فاستجبنا له فأصلحنا زوجه ووهبنا له يحيى» لأن دعاءه لم ينصب على إصلاح الزوج، ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ **فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا** ﴾ (مريم ٢٣) والمَعروف أن «النسى المنسَى» هو الشىء التافه الذى لا يعتد بَه وتلك صفة لا يوصف بها الأموات وإنما يوصف بها المغمورون الخاملون من الناس ومالا خطر له من الأشياء والأحياء. فلم يكن مراد مريم حينئذ أن تقول: «ياليتنى مت وكنت شيئاً لا يعتد به» وإنما كان مرادها والله أعلم «ياليتنى كنت غير معروفة عند أحد ومت ميتة المغمورين الذين لا يهتم لموتهم إنسان» ومما يتضح فيه عكس الترتيب لأمن اللبس قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ** ﴾ (النمل ٢٨) أى انظر بم يجيبون ثم انصرف عنهم وقوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ** ﴾ (النجم ٨) أى ثم تدلى فدنا، ثم انظر إلى ترتيب ذكر الرسل فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** ﴾ (النساء ١٦٣، ١٦٤).

تجد ترتيب ذكر الرسل يناسب ترتيب وجودهم فى الحياة حتى وصلت الآية إلى الأسباط فجاءت بعدهم مباشرة بعيسى الذى ليس بينه وبين نبينا عليهما الصلاة والسلام وهو خاتم الأنبياء إلا فترة من الرسل لم يوجد فيها رسول واحد ثم تلا عيسى فى الذكر من هو أقدم منه وجودا على غير ترتيب حتى ختمت الآية بموسى عليه السلام، ولقد جاء تجاهل الترتيب التاريخى نتيجة لشهرته وعدم الحاجة إلى رعايته فى الكلام. ولست أزعم لهذا النوع من الترتيب الزمانى علاقة بالنحو ولا لتشويشه علاقة بالرتبة غير المحفوظة وإذا كان لى أن أربط بينه وبين قضايا النحو فإن ذلك يتم عن طريق العطف بالواو إذ لا تفيد الواو ترتيبا ولا تعقيبا وقد تم العطف فى كل ما سبق ذكره من الآيات بواسطة الواو وانصبت الملاحظة فى جميع ذلك على أن المتعاطفات قد خالفت فى الذكر ترتيبها فى الرمان.

ومن ذلك أيضا تشويش اللف والنشر كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ** ﴾ (الروم ٢٣) إذ من الواضح إن الله جعل الليل لباسا وجعل النهار معاشا وقال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً** ﴾ (يونس ٦٧) ومثله فى النمل وغافر ٦١ والنبأ ١٠، ١١. ومن هنا كان مافى الآية من «منام» خاصا بالليل وما فيها من «ابتغاء» خاصا بالنهار وأن ترتيب المعنى إنما يكون على هذه الصورة. «ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار» ولما كان هذا التوزيع لوظيفتى الليل والنهار توزيعا بحسب العادة وكان من الممكن أن تتخلف العادة فينام بعض الناس بالنهار ويبتغوا من فضل الله بالليل لم تحرص الآية على الترتيب المعتاد وجاء اللف والنشر مشوشا دون أن يتأثر وضوح المعنى ويشبه ذلك قوله تعالى فى السورة نفسها: ﴿ **فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ** ﴾ (الروم ٤٨) فلماَ كان «البسط» نوعا واحَدا كان من حق الفهم أن ينَصرَفَ إلَى أن عبارة «كيف يشاء» تشمل بسط السحاب فى السماء وجعله مركوما على هيئة الكِسَف ويترتب على ذلك أن تكون

الواو فى «ويجعله» بمعنى «أو» وبهذا يكون تقدير الكلام: «فيبسطه فى السماء أو يجعله كسفا يشاء» ولكن جعله كسفا لا ينتهى عند هذا الحد وإنما يرتبط به أمر آخر مسبب عنه هو خروج الودق من خلاله فلو فَصَلَت عبارة «كيف يشاء» بين الكسف ورؤية الودق لصح أن تكون رؤية الودق سَبَباً للبسط والكسف سواء بسواء وليس هذا ما يرمى إليه معنى الآية ولو تأخرت عبارة «كيف يشاء» فجاءت بعد رؤية الودق من خلاله لكان الضمير الذى فى الفعل «يشاء» راجعا إلى الودق لا إلى الله تعالى ومن هنا كان تشويش اللف والنشر أمرا لا غنى عنه.

وثمة نوع آخر من عدم حفظ الرتبة لإيفاء مطالب أسلوبية من رعاية فاصلة أو غير ذلك فى قوله تعالى: ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ (الأحزاب ٢٦) إذا إن ما يتوقعه السامع للتقسيم والتفصيل عند سماعه «فريقا تقتلون» هو «وفريقا تأسرون» ولكن رعاية الفاصلة آثرت حفظ الرتبة فى النهاية بعد أن لم تحفظها فى البداية ـ ويلاحظ مثل ذلك أيضا حتى مع تباعد المواقع فى النص القرآنى: إذ نجد فى سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (البقرة ٨٨) ثم نجد فى سورة النساء قوله: ﴿ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (النساء ٤٦) وكذلك: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيداً ﴾ (النساء ٤١) ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَؤُلاءِ ﴾ (النحل ٨٩). ولا نملك إلا أنَ نرى رعاية الفاصلة سببا فى الفرقَ بين الرتبة هنَا والرتبة هناك.

وقد يأتى بعض ذلك كسرا للرتابة فى الأسلوب وإتقاء ما يسببه ذلك من الإملال كما فى تحوير التركيب بين الجملتين الاسمية والفعلية فى قوله «يريد الله» فى آيات سورة النساء من قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء ٢٦، ٢٨).

وهناك صورة أخرى من صور الترتيب يمكن أن نسميها ترتيب الأشباه، ويكون ذلك عند توالى النعوت والأحوال والأخبار والمتعاطفات فالمقصود بالأشباه أفراد كل طائفة من هذه الطوائف حين تتوالى فى الكلام فتثور قضية ترتيبها والنظر إلى أيُّها أولى بالتقدير من سواه. ولقد اختار الأسلوب القرآنى أن يبنى التقديم والتأخير على مبدأ القصر والطول فما كان من أفراد الطائفة قصيرا كان أولى بالتقديم مما هو أطول منه. وحافظ الأسلوب القرآنى على هذا المبْدأ فجعل الكلمة المفردة أولى بالتقديم من المركب وجعل المركب أولى بذلك من شبه الجملة وجعل شبه الجملة مقدما على الجملة التامة التكوين لا يصرفه عن ذلك إلا أمن لبس أو تمام معنى فمن شواهد هذا الترتيب فى أجلى صوره ما فى الآيات الآتية:

١ ـ ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ (غافر ٢٨) جاء بثلاث صفات للرجل رتبها بحسب القصر والطَوَل فجعل الصفة الأولى «مؤمن» أولا لافرادها وأردفها بشبه الجملة فالجملة.

٢ ـ ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ (المؤمنون ١١٧) وصف الإله بالمفرد ثم بالجملة المنفية بلا النافية للجنس.

٣ ـ ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ ﴾ (البقرة ١٩) وصف الصيب بشبه جملة ثم بجملة وعطف على الظلمات كلمتين يساويانها طولا.

٤ ـ ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ (البقرة ٢٥) رتب صلة الذين فَجعل اللازم قبل المتعدّى ثَم وصف الجنات بجملة هى أقصر من التى تليها.

٥ ـ ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا ﴾

(البقرة ٦٨) وصف البقرة بمفرد بعده مفرد معطوف عليه وبعدهما موصوف بشبه جملة.

٦ ـ ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة٨٩) وصف الكتاب بشبه جملة بعده وصف فى حيزه شبه جملة فى طيه موصول وصلته الجملة.

٧ ـ ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ (البقرة ٢٦٥) جاء بمفعولين لا جلهّمَا أولّهما مركب إضافى عطف عليه الثانى وفى حيزه شبه جملة ثم وصف الجنة بشبه جملة بعده جملة تامة.

٨ ـ ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ (البقرة ٦٩) وصف البقرة بالمفرد فبصفة ذات فاعل فجملة تامة.

٩ ـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ (آل عمران١١٨) وصف البطانة بشبه جملة بعدها جملة منفية ثم جملة مثبتة أقصر منها هى تفسير لإرادتهم الخبال ومن ثم كان اتصال المفسر بالمفسَّر أولى من مجرد رعاية الترتيب وأخيرا جاءت جملة مؤكدة بالحرف «قد» وهى أطول من كل ما سبق مجتمعا.

١٠ ـ ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (البقرة ٣٠) وَصَل «من» بجملة فعلها لازم وعطف عليه فَعلا متعديا وأخبر عن «نحن» بفعلين لازمين بكلّ منهما جار ومجرور.

١١ ـ ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ

رَاجِعُونَ ﴾ (البقرة ١٥٥ ـ ١٥٦) جاء بموصول حرفى «الَ» وَوَصلَه بَصفة «صَابرين» ثم وصفه بموصول صلته جملة شرطية.

١٢ ـ ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (البقرة ٣٦) جعل المبتَدأ المؤخر الأولى «مستَقر» مفرداً وجعل الثانى فى حيزه شبه جملة.

١٣ ـ ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ (البقرة ١٠٢) جعل المعطوف عليه مفردا وجعل المعطوف موصولا ذا صلة ممطولة.

١٤ ـ ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ البقرة ١٥٥) عطف على المفرد «الخوف» مفردا مثله ثم مفردا آخر فى حيزه شبه جملة.

١٥ ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (البقرة ١٦١) جعل صلة «الذين» جملة فعلهَا لازم وعَطَف عليه لازما آخر فى حيزه جملة حالية وكذلك جعل لفظ الجلالة مضافا إليه فى قوله «لعنة الله» ثم عطف الملائكة وعطف عليهما اسما مؤكدا بلفظ «أجمعين».

١٦ ـ ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة ١٦٤)

بدأت الآية بظاهرتين كونيتين وانتهت بواحدة وجعلت بين ذلك ظاهرتين تفعيتين ورتبت كلا من الطائفتين فالظواهر الكونية هى الخلق والاختلاف والتصريف

والظاهرتان النفعيتان هما جرى الفلك وإنزال الماء ويلاحظ أن «ما» فى «ماأنزل» مصدرية لا موصولة وذلك لأن المصادر تحف بها من أمامها ووراءها وربما كان ورود الظواهر الكونية قبل الظواهر النفعية وبعدها محيطة بها بدءاً وختاماً لأنها أقوى فى الإقناع والدلالة على القدرة.

١٧ ـ ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ (البقرة ١٧٣) عطف على المفرد مفردا فمركبا إضافيا فموصولا وصلته الجَملة.

١٨ ـ ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ (آل عمران ١٧) عطف على الموصول الحرفى ووصلته الصفة أمثال ذلك وعلق بآخر المعطوفات جارا ومجرورا وهناك ملاحظة أخرى هى أنه جاء بالصفات الثلاث الأولى من الثلاثى المجرد والرابعة من المزيّد بالهمزة والخامسة من المزيد بالسين والتاء فجعل التالى هو الأكثر عدد حروف.

١٩ ـ ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (آل عمران ٥٥).

عطف على المركب الإضافى «متوفيك» مركبا مثله فى حيزه شبه جملة هو حرف جر وضمير ثم عطف عليهما مثلهما وفى حيزه شبه جملة هو حرف جر وموصول صلته جملة ثم عطف على ذلك مثله أطول منه ثم عطف آخر الأمر جملة هى «إلىّ مرجعكم» لها ما يترتب عليها وهو الحكم بينهم وذلك أطول من كل ماسبق.

٢٠ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾(آل عمران ٩٦) جاء بالحال المفردة «مباركا» وعطف عليها أطول منها.

٢١ ـ ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ

النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (آل عمران ١٠٣)

عطف «ولا تفرقوا» على الأمر بالاعتصام من قبيل تأكيد الأمر بالنهى عن ضده فكان ذلك كأنه جملة واحدة. وكذلك كان عطف جملتين بواسطة الفاء على «كنتم أعداء» لأن الفاء رتبت كل جملة من الثلاث على سابقتها فأصبحن جميعا جملة واحدة. ويقال ما يشبه ذلك فى العلاقة بين «كنتم على شفا حفرة» وما عطف عليها من قوله «فأنقذكم منها» لأن الجملة الثانية جاءت فى موقع الطباق مع الأولى والعدول عن نتيجتها المنطقية فإذا ترابطت جمل الآية فى ثلاثة مجموعات ظهرت مطابقة ترتيبها للمبدأ المذكور آنفا.

٢٢ ـ ﴿ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ (آل عمران ١١٩) لدينا أولا جملة مثبتة فاعلها الواو ومفعولها الضمير عطفت عليها جملة منفية فى مثل طولها ثم مثبتة أطول منهما ثم شرطيتان ثانيتهما أطول من أولاهما فكأن كل جملة أطول من سابقتها.

٢٣ ـ ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (البقرة ٢٢٤) لدينا مصادر مؤولة منزوعة الخافض أولها «أن تبروا» وجاء المعطوف على ذلك فعلا مساويا فى الطول «وتتقوا» ثم جاء فعل آخر فى حيزه شبه جملة.

٢٤ ـ ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة١٨٦) جاء خبر إن الأول مفردا ثم تلاه خبر آخر وقع منه موقع اللازم من الملزوم أى •من القرب بحيث أجيب» والخبر الثانى أطول من الأول.

وثمة حالات أخرى لايحسن فيها إيراد الأقصر أولا لأسباب مختلفة سنذكرها مع كل شاهد مما يلى:

٢٥ ـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ

بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ (الكهف ١ ـ ٤) جاءت الآية بحالين من الكتاب أولاهما «ولم يجعل له عوجا» والثانية «قيما» وجاءت الثانية أقصر من الأولى ولكنها متأخرة عنها لتتصل بما يفسر معنى «قيما» من إنذار البأس وتبشير المؤمنين بالأجر الحسن وإنذار من ادعوا لله تعالى ولداً، فالكتاب قيم بمعنى أن له هذه الوظائف، ولو تقدمت الحال الثانية على الأولى لبدا أن الكتاب قد أنيطت به هذه المهام لأنه لا عوج فيه وعندئذ لايبدو أن هناك علاقة بين السبب والمسبب لأن مجرد كونه غير ذى عوج لا يؤهله لهذه الوظائف فلابد أن تكون له القوامة ليقوم بها أو تقوم به فالسبب سبب للقوامة لا للاستقامة.

٢٦ ـ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ (الفرقان ٥٨ ـ ٥٩)

وصفت الآية الأولى الذات العلية بصفتين أولاهما مفردة «الحى» والثانية موصول وصلته «الذى لا يموت» وعادت الآية الثانية لتصفه تعالى بموصول صلته أطول مما سبق لاشتمالها على معطوفين على المفعول المفرد أولهما مفرد والثانى موصول صلته شبه جملة ثم جاءت الصفة الأخيرة مفردة فكانت أقصر مما سبقها لأن كلمة «الرحمن» هى الوحيدة بين الصفات المذكورة فى الآيتين مما يقع تحت الخبرة المباشرة فكلنا يتمتع برحمة الرحمن ويعرفها فلما كانت خاتمة الآية «فاسأل به خبيرا» ناسب أن تكون الصفة التى تخضع للخبرة أقرب الصفات إلى الخاتمة.

٢٧ ـ ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا ﴾ (البقرة ٧١)

هذه صفات ثلاث أقصرها أوسطها. وسبب ذلك أن الصفة الأولى «ذلول» وجدت تفسيرا لها فى «تثير الأرض» فدخلت جملة «تثير الأرض» فى حيز النفى

وكان المعنى: «لاذلول فتثير الأرض» ودخولها فى حيز النفى هو الذى يبرر أن يعطف عليها «ولا تسقى الحرث» فكأنه يقول: «لا تثير الأرض ولا تسقى الحرث» ثم جاءت الصفة الثالثة، «مسلمة» ومعها شرحها متصلا بها فكأنه يقول «مسلمة أى لا شية فيها» فارتباط إحدى الصفات بمفسرها والأخرى بشرحها جعل من الضرورى أن يتصل كل منهما بما يلزمه وجاءت الصفة الوسطى قصيرة فى موقعها لمشاركتها إثارة الأرض فى وصف البقرة بأنها ذلول فناسب أن يتلو السقى إثارة الأرض مباشرة.

٢٨ ـ ﴿ **وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا** ﴾ (البقرة ١٢٥) جاءت الصفة الثانية أقصر من الأولى لأنها تتطلب أن يقدر معها جار ومجرور كالذى مع الأولى فتكون مساوية لها فى الطول والتقدير «مثابة للناس وأمنا للناس» ويلاحظ مثل ذلك فى قوله تعالى: ﴿ **هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ** ﴾ (ص ٤٢) أى «وشراب بارد» وقوله ﴿ **إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ** ﴾ (غافر ٧١) أى و«السلام فى أعناقهم».

٢٩ ـ ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِم** ﴾ (البقرة ١٢٩).

وصف الرسول بشبه جملة «منهم» بعده جملة فعلية ذات فاعل مستتر وشبه جملة ومفعول به مضاف بعدها جملة أخرى معطوفة عليها ذات فاعل مستتر ومفعول به ومعطوف على هذا المفعول وأخيرا تأتى صفة قوامها فعل وضمير مستتر وضمير غيبة، وهى أقصر من سابقتيها وأرى أن السبب فى ذلك أن التزكية تتم بالتعليم لا بمجرد التلاوة ولذلك جاءت بعد تعليم الكتاب والحكمة (أى السنة).

٣٠ ﴿ **قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** ﴾ (آل عمران ١٥)

أعطى الله المتقين ثلاث عطايا أطولها الأولى وأقصرها الوسطى وقد جاءت بعد

الجنات مباشرة لأنها لاتتحقق إلا فيها أما الثالثة فهى أهم منها وأعم لأنها تشمل كل خير فجاءت أخيرا لتكون وعدا بعطايا لم تذكر فى الآية.

٣١ ـ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ (يوسف١٠٩)

لما كان وصف الرجال بنزول الوحى أهم من كونهم من أهل القرى تقدم الوصف الأهم ليكون ألصق بالرجال وأدل عليهم.